فلسفة الابتكار الاجتماعي في الفكر الصوفي

Philosophy of social innovation in Sufi thought

1ابن دنية ميلود *

جامعة **عبد الحميد ابن باديس مستغانم (الجزائر)** ,aymenada14@gmail.com

1 مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم

2د/ فايزة أسعد زرهوني

جامعة **عبد الحميد ابن باديس مستغانم (الجزائر)**، zerhounifaiza@yahoo.fr

تاريخ الارسال 2020/07/06 تاريخ القبول 01/16 / 2024 تاريخ النشر 2024/03/31

ملخص:

شكّل التصوف منذ ظهوره حالة روحية وعمقا اجتماعيا يجمع بين مجاهدة النفس بالاستقامة على الفضيلة والأخلاق الحميدة يرافقها سلوك عملي ومخزون ديني ورمزي ذو طابع روحي للمجتمع الإسلامي، يمثّل قوة حيوية وقدوة منيرة أثْرت المجتمعات الإسلامية بقيّم وسلوكات ساهمت في بناء انسان محافظ على أصالته وقيمه الإسلامية، متواصل مع تحولات مجتمعه، كما كان محركا ومنشطا لمسار الحياة في جوانبها الاجتماعية ،الاقتصادية ،الفكرية ،الثقافية والدينية. ومؤسسات ذات رؤية تنموية استشرافية ، جعلت من السلوك الصوفي وقيّمه مصدرا في تشكيل معالم الحضارة الإنسانية وإثرائها من خلال ما قام به المتصوفة من ابتكارات خدماتية للمجتمع والسعي نحو إشباع حاجات الأهالي وتحقيق حاجاتهم ضمن سياق أخلاقي و اجتماعي .

الكلمات المفتاحية:

التصوف; المقاولات الاجتماعية; الابتكار الاجتماعي; العمل الإنساني ;القيم الأخلاقية

ABSTRACT **:**

. Sufism has formed since its appearance a spiritual condition and a social depth that combines self-righteousness with integrity and good morals accompanied by practical behavior and a religious and symbolic stockpile of a spiritual nature for Islamic society, representing a vital force and enlightening role that influenced Islamic societies with values and behaviors that contributed to building a person who maintains his Islamic origin and values, continuous With the transformations of his society, he was also an engine and stimulant to the path of life in its social, economic, intellectual, cultural and religious aspects. And institutions with a forward-looking development vision, which made Sufi behavior and its value a source in shaping the features of human civilization and enriching them through the services of the Sufis of community services and seeking to satisfy the needs of the people and achieve their needs within an ethical and social context

.***Keywords:*** *Mysticism; Social entrepreneurship ; innovation solidarity;. Humanitarian action ; Moral values*

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

حظيت الزوايا والطرق الصوفية عامة على مسار المراحل التاريخية بمكانة رفيعة عند أفراد المجتمع المغاربي عامة بمختلف شرائحه، وأصبحت بذلك المؤسسة المركزية التي تدور حولها أغلب حيثيات الحياة الإجتماعية، كما تنطلق منها تفاصيل الحياة اليومية للأفراد ،وهي مؤشرات تؤكد وتُظهر أن هذه الطرق الصوفية استطاعت ببنائها الإجتماعي وأدوارها المتعددة أن تتغلغل في المجتمع كطريقة روحية وجماعة إجتماعية ساهمت في الوفاء بالكثير من حاجات المجتمع وإشباعها لتشمل الخدمات الإجتماعية ،التربوية، الإقتصادية وكذا القضائية بفض النزاعات والتقاضي بين الأفراد وتوفير الرعاية الصحية والنفسية والمشاركة في الحياة العامة بطريقة مجانية وبهدف اجتماعي إنساني غير ساعي لتحقيق المنافع الخاصة للمشرفين عليها ، وكلها خدمات جسّدت الرؤية المستقبلية والإستشرافية للطرق الصوفية ونزعت عنها الصورة النمطية لذلك الإنسان القابع في زاويته منتظرا الصدقات، كون المتصوفة عبر تاريخهم إهتموا بصناعة الخدمة الإجتماعية وتعزيز المجهود التنموي المحلي و أن "التصوف ليس مُجرد نظريات أو تصورات نفسية إجتماعية أو فلسفية بقدر ما هو طريق او أسلوب في الحياة يُمارس من أجل هدف إجتماعي"([1])، فكانت الطرق الصوفية تُعد مؤسسة التنشئة الإجتماعية الأهم التي ساهمت في إنتاج ونسج وتنظيم الروابط بين أفراد المجتمع وتأطيرهم دينيا و إجتماعيا. ما ساهم في تقوية التيار الصوفي وبناء صورة ذهنية إيجابية لدى الأفراد جعلت منه النمط المهيمن بمؤسساته وممارساته وبدون منازع في الإسلام السائد بمدن شمال إفريقيا وقراها إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي، كظاهرة دينية وبنية إجتماعية وقّوة رمزية بدأت كإجتهادات فردية ثم تطورت لتصبح ظاهرة إجتماعية جماعية وتيار فكري استطاع إبتكار منظومة من المفاهيم والقيم والممارسات ذات الطابع الإنساني التي تجعل من خدمة الفرد في صلب إهتماماتها "ليمثل بذلك الإستثناء ضمن جميع التيارات الإسلامية القادرة على الإصلاح بفعل حيويته الدائمة"([2]) وذلك بما حققه من التزامات لأفراد المجتمع بهدف إنساني غير هادف لتحقيق منافع ذاتية من وراء ذلك ، خاصة في ظل غياب مؤسسات حكومية تقوم بهذه المهام.

وهو ما يدعونا للتساؤل عن ماهية رؤية الخطاب الصوفي لموضوع العمل الإجتماعي والإبتكار التضامني ضمن مفهوم المقاولات الاجتماعية كمفهوم حديث التداول في الحقل السوسيولوجي ؟

ولمعالجة هذا الموضوع نحاول الإحاطة بمفاهيم التصوف والمقاولة الاجتماعية ،ثم الإشارة الى المقاربة الفكرية لدى المتصوفة حول موضوع المقاولة الاجتماعية.

2. مفهوم التصوف

يُعرّف التصوف بأنه تجربة روحية ،وقيمة دينية ،وحالة إنسانية تقوم على العبادة والإنقطاع الى الله سبحانه وتعالى والإعراض عن ملذات الدنيا والزهد فيما أقبل عليه العامة ، أساسه تربية النفس والتحلي بالقيم الكريمة والأخلاق الفضيلة.فهو حسب ابن خلدون" العكوف على العبادة و الإنقطاع الى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"([3]) . وهو عند

البعض مدارس روحية نشأت في الإسلام "لتربية السالكين تربية إسلامية صحيحة و الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنئ"([4]). ما جعل منه منهجا وطريقا تُساعد الإنسان على مواجهة تحديات الحياة . تمظهر منذ مراحل نشأته الأولى عبر مؤسسات أضحت منذ بداياتها تُعد من أقوى الأنساق الإجتماعية المهيكلة الفاعلة في ضبط وتنظيم سلوك ومواقف الأفراد والجماعات و اتجاهاتهم و في ضمان إستقرار المجتمع عبر القوة الرمزية لشيوخها، دخلت في علاقات تفاعل وتداخل معقّدة مع المؤسسات الإجتماعية الأخرى من خلال المساهمة في تشكيل الفضاء الإجتماعي للمجتمع المحلي وفي تفاصيل الحياة اليومية للأفراد، حيث ظهر حضورها جليا في بنية ثقافتهم وقيّمهم وفي مختلف أنشطتهم و أفعالهم وعلاقاتهم مشكلا بذلك تراكما معرفيا أسس لرأسمال ثقافي وإجتماعي شكّل مرجعية ثقافية ذات طابع رمزي قادر على منح الأفراد حوافز لمواجهة متطلبات الحياة المختلفة ، تستثمر فاعليتها كقيّم أخلاقية ورمزية في تحقيق أهداف وغايات إجتماعية إنطلاقا مما تحمله من قواعد ومبادئ تدعو الى تقديس العمل والأمانة والإتقان والسعي إلى تحقيق الغايات والأمر بالمعروف والصدق في القول والعمل والإجتهاد وحسن الخُلق والإحسان ، وغيرها من القيم التي تُشكل ثقافة دينية يمكنها أن تبلور مسارا للتفكير والسلوك و كذا النظام الذي يُشكل أساس للبناء الإجتماعي والتأطير النهضوي . فظهرت بذلك قوة الزوايا وشيوخها والتي إستطاعت أن تجمع الناس حولها وتُؤسس لمرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي من خلال السعي لتنظيم وتشكيل المجتمع في جوانبه الروحية ،الفكرية والسلوكية للإنسان، و الإستجابة لحاجات وتطلعات البناء الإجتماعي عبر السعي لإبتكار خدمات وإشباع حاجات الأفراد من خلال عديد النماذج الخدماتية التي قامت بها.

3.مفهوم المقاولة الاجتماعية

يُعد موضوع المقاولة الإجتماعية مصطلح حديث في الحقل السوسيولوجي متعدد الأوجه والسياقات والمفاهيم يجمع بين مفهوم المقاولة المتداول في الحقل الإقتصادي ، والهدف الإجتماعي الذي يعكس البعد التضامني والإنساني. تمثل نشاطات موجهة لإكتشاف الفرص والسعي لإستثمارها بقصد تحقيق قيمة مضافة وتغيّر إيجابي ومواجهة التحديات الإجتماعية بطريقة إبداعية تتسم بالكفاءة والتميّز، تتضمن حلول غير تقليدية و تسعى لسد الفجوة بين الأفراد بتنفيذ مبادرات ومشاريع يشكلها أشخاص غير تقليديين يستشعرون الحاجات ويستشرفون المستقبل ، تدخل نشاطاتها ضمن سياق قيّم التكافل والتضامن والتقليد الإجتماعي الساعي لجعل الإنسان في قلب التنمية وفي صلب اهتماماتها بعيدا عن الغايات الربحية والأهداف الإقتصادية . تقوم على خلق و إبتكار نماذج لإحداث التغيير الإجتماعي من خلال تنفيذ مشروعات جديدة او تأسيس مؤسسات تحقق أرباح من أجل أهداف إجتماعية تنموية تضامنية. إرتبط ظهورها ونشاطها بالوجود الإنساني وتفاعله بصيغ ووسائل متجددة. كما إرتبطت بمحددات ودوافع ذات مصادر مختلفة منها المحددات السوسيو ثقافية في إطار مفهوم الرأس المال الثقافي بمفهومه الشمولي ومن ضمنه الدين كقوة رمزية و إطار موجه ومحفز للمبادرات بأشكالها المختلفة ، إختلفت

بتطور القيم والثقافات ما جعل منها موقف إنساني، وظاهرة تاريخية ، ووحدة إجتماعية وبنية إقتصادية تهدف الى تحقيق غايات و إشباع حاجات. مورست بأشكال وأدوات ومفاهيم وأطر وآليات متعددة عبر كل المجتمعات الانسانية منذ القديم في إطار العمل الإجتماعي التضامني الخيري غير الربحي، وبأشكال إنسجمت وطبيعة المجتمعات تحت تأطير المؤسسات الدينية خاصة كونها تحمل بعد أخلاقي يرتبط بعمل الخير والتضامن، الأمر الذي أعطاها بعد قيمي ثقافي تحكمه متغيرات الثقافة والأعراف والتقاليد والمعتقدات الدينية التي تعكس تراكمات الرأس المال الإجتماعي المحلي. تقوم على ثقافة المشاركة والمواطنة وعلى إبتكار وتشجيع المشاريع الجماعية في إطار تعاوني.

يُشير المفهوم اللغوي للمقاولة الاجتماعية حسب معجم " لاروس الفرنسي" الى "مجموعة الأنشطة التي تتقاطع مع القطاعين العام والخاص ، وتتطور وفقا لمنطق الإقتصاد الإجتماعي الذي يشمل الجمعيات الخيرية والمؤسسات التعاونية والتضامنية"([5]). وهي مفهوم مركب من مصطلحين: المقاولة والتي "تُعد نوع من السلوك الساعي نحو الإبتكار عبر إستغلال موارد وحالات تحمل مخاطرة ، ومسار يعمل على تحويل فكرة الى إبداع"([6]). في حين يشير مصطلح الاجتماعية الى السمة الإنسانية والفطرية التي تقوم على التفاعل والتعايش بين الأفراد والاختلاط فيما بينهم والمشاركة في النشاطات التي تهتم بشؤون الناس وقضاياهم . ما يجعل من المقاولة الاجتماعية كل جهد فردي أو جماعي يسعى لرفع التهميش وتقليص الفوارق دون السعي لتحقيق الربح، يقوم على الرغبة الحرة والدافع الذاتي بما يعود بالنفع على المجتمع "تحتضن رؤية جماعية ثقافية للإقتصاد كساحة مركّبة من العلاقات الإجتماعية ينتج فيها الأفراد والمجتمعات والمنظمات سُبل معيشتهم عبر وسائل متعددة وبدوافع وطموحات مختلفة وليس فقط تعظيم المكسب المادي الفردي"([7]) .

وهي حسب البنك الدولي "مجموعة كبيرة من المنظمات المستقلة الى حد كبير عن الحكومات تتسم بصورة رئيسية بأن لها أهداف إنسانية او تعاونية أكثر من كونها أهداف تجارية ، تسعى بصورة عامة الى تخفيف المعاناة او تعزيز مصالح الفقراء والفئات المستضعفة الأخرى او حماية البيئة او توفير الخدمات الإجتماعية الأساسية او الإضطلاع بتنمية المجتمعات المحلية"([8]). تقوم على فكرة مبتكرة تعالج قضايا إجتماعية ضمن مشروع ريادي يحمل مقاربة تتأسس على تدبير حلول لمشاكل مطروحة من أجل تحقيق أثر إيجابي وتنمية مستدامة ووفق آلية تقوم على المبادرات الفردية والجماعية الخاصة بهدف إشباع حاجات وإبتكار أنظمة إنتاجية تشاركية جماعية وتعاونية بديلة عن الأنظمة التنافسية القائمة على المنفعة العامة، عبر إستثمار قيّم التراكم الثقافي والرمزي للمجتمع ضمن ما تحمله المجتمعات من قوة لرأس مالها الاجتماعي والثقافي. تُمثل"جهدا أو خدمة يقوم بها شخص معين أو مجموعة من الأفراد بهدف تقديم مساعدات وخدمات للمجتمع دون توقع مقابل لهذه الجهود المبذولة "([9]). تمثل حسب منظمة الأمم المتحدة كل "جهد إنساني يُبذل من أفراد المجتمع بصورة فردية أو جماعية يقوم بصفة أساسية على

الرغبة والدافع الذاتي بهدف إكتساب شعور الإنتماء إلى المجتمع وتحمُّل المسؤوليات التي تساهم في تلبية احتياجات ملحة أو خدمة قضية من القضايا التي يعاني منها المجتمع"([10]).

تعددت الإصطلاحات الدالة على موضوع المبادرات الإجتماعية التضامنية منذ القديم كمنظمات المجتمع المدني والمؤسسات غير الحكومية وغير الهادفة للربح ، القطاع الثالث والإقتصاد غير الربحي والإقتصاد الإجتماعي و التضامني ،ومنظمات العمل التطوعي، ومنظمات العمل الإجتماعي والإقتصاد الشعبي ، إضافة لمفهوم الريادة الإجتماعية، والإبتكار الإجتماعي ،التدبير الاجتماعي ، وصولا لمفهوم المقاولة الإجتماعية وغيرها من المفاهيم والتي تستند على مبادرات متجددة تنشأ عن حاجات إجتماعية محلية تقترح حلول مبتكرة غير إعتيادية. تتخذ شكل العمل الفردي والذي يكون بمبادرة فردية، أو عمل جماعي تتضافر الجهود الجماعية لتنتج نشاط بإسم الجماعة أو المجتمع، أو تتخذ عمل خيري مؤسسي تُشرف عليه مؤسسة متخصصة نابعة من المجتمع مثل مؤسسات المجتمع المدني،أو عمل خيري رسمي تشرف عليه الحكومات من خلال هيئات حكومية رسمية. وعلى إختلاف مفاهيمها وتنوعها فإن المقاولة الإجتماعية تتفق على فكرة السعي إلى تقديم خدمات بهدف إنساني غير ربحي وتحقيق المنافع الإجتماعية. تتضمن إستعمال وتوظيف للموارد بمختلف أشكالها وتعقب للفرص و إستثمارها بطريقة إبداعية لإحداث تغيّرات إجتماعية. تحكمها متغيرات الثقافة والأعراف والتقاليد والمعتقدات الدينية خاصة والتي أطرتها بمفاهيم البر والإحسان والأمر بالمعروف و بقيم ذات بعد رمزي و أخلاقي ، وهنا نجد أن الإسلام مثلا نظّم أعمال التدبير الاجتماعي والتضامني وفق قواعد ومبادئ إلهية ثابتة ، فأعطى للتضامن بعدا أخلاقيا تعبديا كما وضعه في إطاره الشرعي فوردت العديد من الآيات الكريمة التي تؤسس للمفهوم وبمصطلحات مختلفة فنشأت الكثير من المواقف في إطار مفهوم الخير والإحسان والبر والسعي الى المعروف . كما نجد أن المساجد والزوايا مارست دورا هاماً في تجسيد فكرة المقاولة الاجتماعية "كونها كانت مؤسسة تعليمية وثقافية و إجتماعية وقضائية من خلال الدور الذي كان يؤديه مجموعة من المتطوعين من العلماء والمحتسبين ، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك دواوين خاصة للعطاء وتقديم المعاشات للمستحقين، كما كان هناك إهتماما خاصا بالضعفاء ، وفق إحتياجاتهم وظروفهم الشخصية، فكان يُخصص للكفيف والعاجز والمريض والمسن من يقوم برعايته وكانت نفقتهم على بيت المال"([11]). ماجعل من أشكال التدبير التضامني والاجتماعي المختلفة سمة مميزة للمجتمع الإسلامي مؤطرة من خلال التعاليم الإلهية وسيرة سيد الخلق ، حيث كان الصحابة عليهم الرضوان يتنافسون على تقديم الخدمات ومساعدة الفقراء في السر والعلن، ما يؤكد على أن تاريخ الحضارة الإسلامية أسّس للكثير من الصور التي تُجسد الممارسة التضامنية والاجتماعية في أشكالها المختلفة ولكون تاريخ الدولة في الإسلام هو تاريخ تضامني كان فيه القضاة ورجال الدين ومشايخ الطوائف هم مؤطرو المبادرات والأعمال الإجتماعية لما يمتلكونه من صورة ذهنية وقبول شعبي وقوة تأثيرية . وهي مؤشرات وشواهد تاريخية تؤكد " أن المجتمع العربي وفي ظل الإجماع الإسلامي أنتج مؤسسات للنفع العام والخدمات الإجتماعية من طبابة وتعليم

ومستشفيات ومساكن...وكل هذه الخدمات قامت على المبادرة أو الإلتزام بفريضة الصدقة"([12]). كما لعبت الطرق الصوفية دورا محوريا في تأصيل القيم التضامنية التطوعية من خلال الخدمات والمبادرات التي قامت بها طوال تاريخها ،حيث سعت لتقديم خدماتها لأعضائها وللفقراء والمحتجين وعابري السبيل والمحتاجين من خلال فتح الزوايا والمساجد كمراكز للتعليم والقراءة ونشر العلم والثقافة والمحافظة على الدين ، كما عملت الزوايا على توفير المبيت والأكل وتقديم خدمات التقاضي وتنظيم الأمور الإدارية بين المواطنين كعقود الزواج وعقود البيع والشراء، ما جعل للزوايا الدينية بشيوخها وأئمتها ومصلحيها دورا بارزا في قيادة المجتمع وتوجيهه دينيا وإجتماعيا وحتى إقتصاديا يحثُ الناس على العمل وتدوير المحاصيل حسب الفصول وتخزينها وإستعمالها عند الحاجة . كما ساهمت الظروف الإجتماعية والإقتصادية الصعبة المتدهورة على التفاف الناس حول شيوخ الزوايا والطرق الصوفية لما لقوا منهم من إحتضان ومساعدة ولما قامت به من أدوار تعليمية تربوية توجيهية ودينية جعلت من الزوايا تُحظى بثقة السكان ، فأصبح شيوخها بمثابة الموجه والمرشد والرائد الاجتماعي نظير الخدمات المقدمة ما ساهم في تشكيل روح جماعية أسست لتبلور نظام إجتماعي محلي يجسد قيم الروح التضامنية الإجتماعية ويعكس السلطة الرمزية لشيوخ الزوايا " فالقضاة ورجال الدين ومشايخ الطوائف هم من أطّر المبادرات والأعمال الإجتماعية لما يمتلكونه من صورة ذهنية وقبول شعبي"([13]) .كلها عوامل جعلت من المساجد والزوايا نماذج لمؤسسات جماعية تبنّت دور المقاولات الإجتماعية ، لبّت و إستجابت لحاجات السكان المحليين معتمدة في ذلك على إمكانياتها المادية وقوة تراثها الرمزي المؤثر.

4.المقاولة الاجتماعية في الفكر الصوفي

يعد التصوف حالة روحية وقوة رمزية يجمع بين المجاهدة النفسية والقيّم الأخلاقية يرافقها سلوك عملي ومخزون ديني وروحي ذا طابع رمزي للمجتمع الإسلامي، فإنه كان يدعو ويسعى الى الإهتمام بخدمة الإنسان وغرس قيم التضامن والسعي إليها و إعتبارها من أولويات الرجل الصوفي الساعي للتفكير والعمل على تحقيق حاجات الآخرين ضمن مفهوم السعي الى البر والأمر بالمعروف . وقد تجسّد ذلك عبر العديد من الصور والنماذج الإجتماعية التضامنية المبتكرة والتي حاول من خلالها المتصوفة على مستوى الخطاب والممارسة تجسيد قيم الإبتكار الإجتماعي ضمن الكثير من المبادرات التنموية الرائدة التي جعلت من التصوف يمثل عمق وقوة حيوية أثرى المجتمعات الإسلامية عامة والمجتمع الجزائري خاصة بقيم وسلوكات ساهمت في بناء إنسان محافظ على أصالته وقيمه الإسلامية، متواصل مع تحولات مجتمعه، محركا ومنشطا لمسار الحياة في جوانبها الإجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية والدينية . اذ أكّدت الكثير من الوقائع التاريخية والتجارب الميدانية لمؤسسات تنتمي للطرق الصوفية كيف إهتم المتصوفة عبر تاريخهم بصناعة الخدمة الإجتماعية وتعزيز المجهود التنموي المحلي وفق رؤية تقوم على إستشراف المستقبل جسّدت نماذج لمقاولة إجتماعية بالمفهوم العصري إستطاعت عبر إبتكارات وإبداعات شيوخها أن توفر خدمات وتساهم في حل الكثير من المشكلات للمواطنين ، إذ تعد في هذا الإطار الزاوية

العلوية بمستغانم ،وزاوية الهامل بالجنوب الغربي والزاوية التيجانية بتماسين على المستوى المحلي ، في حين تعد تجربة حركة الخدمة لفتح الله غولن على المستوى الخارجي من النماذج الخالدة للطرق الصوفية التي جسّدت عبر تاريخها مؤسسات تحمل ملامح لمؤسسات ذات طابع إقتصادي بهدف إجتماعي تضامني نظير الخدمات التي قدمتها، وهو ما ينفي تلك الصورة النمطية السائدة في كون الصوفية جماعة من العباد إنعزلت عن الناس وتقوقعت على نفسها في الصحاري تمارس الطقوس والتقشف والزهد وانتظار المصير، بل هي مؤسسات حملت رؤية تنموية عبر العديد من المبادرات المبدعة التي دأبت على إعتمادها لتحقيق الإصلاح الإجتماعي والتربوي والديني ،خاصة في فترة غياب مؤسسات حكومية تقوم بملء الفراغ. ما جعل من سلوكه وقيمه مصدرا في تشكيل معالم الحضارة الإنسانية وإثرائها ، كما ساهم عبر مشايخه في تنمية وبناء القيم الإنسانية كواقع متجذر في المجتمع الإسلامي وكونه عامل إزدهار وليس تخلف وتقوقع داخل فضاء المقدس وترسبات الماضي. وجعل من الزوايا والطرق الصوفية عامة تحضي بمكانة رفيعة عند أفراد المجتمع، لتصبح المؤسسة المركزية التي تدور حولها أغلب تفاصيل الحياة اليومية للأفراد و مؤسسة التنشئة الإجتماعية الأهم التي ساهمت في إنتاج ونسج وتنظيم الروابط بين أفراد المجتمع ، جعل منها قوة إجتماعية ومعنوية تساهم في تأطير الأفراد لما تتمتع به من صورة ذهنية إيجابية وقبول ، وهو ما مكّن التصوف بمؤسساته وممارساته النمط المهيمن في الإسلام السائد في مدن شمال إفريقيا وقراها الى غاية القرن التاسع عشر الميلادي وأصبح " شيخ الطريقة هو المرجعية لأهل المنطقة والحي والقرية يتمتع بكلمة مسموعة في جملة من القضايا ،كما كان له أثر كبير في النشاط الإقتصادي والسياسي والإجتماعي لمجتمع عصره"([14]). فتجدهم يسعون دائما الى تجميع الناس و تعزيز روح التكافل وقوة التماسك في علاقة ديناميكية فعالة مع جميع أفراد المجتمع ،كون الصوفي الحقيقي ليس من يعزل نفسه عن مجتمعه بين جدران زاويته غير مبال بقضايا مجتمعه، حيث المجتمع هو مجال تجسيد قيم وتعاليم التصوف التي يقتضيها القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم و" أن الصوفية ليست فلسفة تجريدية و إنما ممارسة عملية تدريبية ،إنها تجربة داخلية تؤثر بشكل متضافر على الجانب الروحاني والنفساني والجسدي تتميز بطاقة روحية مفعمة تحولت إلى قوة اجتماعية مؤسساتية " ([15]). وهو ما جعل من المؤسسات الصوفية ملجأ للطبقات الإجتماعية المحرومة للبحث عن حلول لمشاكلها والمرجع الأول للجماهير في كل تفاصيل قضايا حياتهم ، فتحولت مقراتهم ملجأ لكل محتاج للطعام والإيواء والنصرة والعلاج كون الرجل الصوفي كما ذكره ذو النون المصري(796- 859) " عون للغريب ،أب لليتيم، بعل للأرملة حفي بأهل المسكنة، مرجو لكل كربة" او كما قال الجنيد "أن الصوفي يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شئ ، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت "([16]). إذ عكس المتصوفة التكافل والعمل الإجتماعي ضمن مكارم الأخلاق وصفاء القلب **وترقية النفس** ونقاء الروح من الأنانية والحسد وإمتلاءها بروح الجود والسعي للخير ونصرة المستضعفين وخدمتهم " إذ وحين يدرك الصوفي هذه الحقيقة يرى رحمة الله في رحمته لإخوانه ، وصرف بلاء آخرته في دفع بلاء الدنيا عن غيره ، وقضاء حاجاته في قضاء حوائج الناس والسعي لهم، بل ويرى فيهم ما يراه

المخلوق في أثر الخالق فيهم، فيعاملهم بالرفق والإحسان "([17]). و أن خدمة الخلق شرط لخدمة الحق وسبب موصل إليه، يقول(ابن خفيف 882-982) "إذا كنت لا تحسن خدمة صاحبك من البشر فكيف تحسن خدمة الله"([18]). كما إتخذ الصوفية من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا" وقوله "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" معيارا لسلوكهم الإجتماعي ومنهج أخلاقي لقيمهم. تقول آنا ماري شيمل "أن من أهم مبادئ الصوفية عمل الخير وإيثار الغير على النفس والتخلي عن الوضع الإجتماعي من أجل الآخرين، والصوفي من مبادئه ينبغي عليه أن يقطع صيامه إذ رأى أن أحدا من الجماعة بحاجة الى طعام او يتوق إليه لأن إدخال السعادة على قلب الأخ أهم من الأجر على الصيام"([19]). ما جعل من خدمة الإنسان عند الصوفية كانت دائما هي أولى الخطوات في الدرجات المؤهلة للطريقة والمحققة لأعلى المقامات إذ يبقى واجب على الصوفي طيلة حياته ، لأنه كما يقول الشيخ الصوفي عبد الرحمن الجامي(1414-1492) "من إعتذر عن خدمة إخوانه فإن الله يضع من شأنه فلا يشمله العفو"([20]) .

وهنا نجد أن الكثير من الشواهد التاريخية تؤكد على أن تاريخ الزوايا في المغرب العربي عامة هو تاريخ تضامني اجتماعي بإمتياز نظير ما ابتكرته من خدمات تحت السطلة الرمزية للشيوخ والأولياء الصالحين "حيث غذّت الطرق الصوفية روح التكافل والتضامن وعززت الشعور بالطمأنينة ، و إستطاعت بزواياها أن تجمع الناس حولها وأن تمكّن الحياة الصوفية من عماد مادي إستفادت منه الطرق الناشئة" ([21]) لتصبح بذلك تمثل نزعة أخلاقية وصفة يكتسبها الصوفي عبر منهجه التربوي القائم على تزكية نفوس المتعلمين من خلال نزع مواطن الشح والبخل التي تعتري المريد في سيره وتحليتها بأخلاق العطاء والجود والكرم. فالعمل الإجتماعي التضامني بالنسبة للصوفي هو وسيلة للرقي في مدارج المقامات وسبب لتصفية الباطن من قيود المادة قصد تربية السالكين على النفع والعطاء إتجاه المسلمين. ذلك أن تقديم العون للفقراء كان من مقومات الأخلاق الإجتماعية لرجال التصوف ومظهرا جليا من مظاهر رغبتهم في التخفيف من حدة مشاكل التباين الإجتماعي ."فقد ورد في إحدى فتاوي إبن العريف (1088-1141) أن خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج "([22]) و لكون المحافظة على النفس يعد أولوية في أصول الدين. ولعل ما يوضح رؤية المتصوفة لقيمة التضامن الإجتماعي هو درجة الصلة الوثيقة التي ميزت علاقة العلماء والصلحاء والمتصوفة بقضايا الناس في عصرهم، بل نجد أن الصوفي أبو العباس السبتي(1129-1204) يقول أن "لُباب القوانين الشرعية هو الصدقة وأصل الخير الإحسان ، وأصل الشر البخل وأن الإنفاق هو الدليل على أن المنفق قد تخلص من الشرك الخفي الذي يتسرب إلى القلب من حب المال ، وأن الإنفاق هو الذي ينبغي أن يكون في مقدمة أعمال التدين، وأن عبادة الخالق مقرونة بإسداء الخير للغير قبل كل شيء"([23])، وهو الذي جعل مبدأ الصدقة والإحسان حجر الزاوية في فلسفته التصوفية، وأن من القيم الأخلاقية المطلوبة في الصوفي أن يكون رحيما بالناس ومناصرا لهم .

وفي نفس الإتجاه يرى عبد الوهاب الشعراني (898-973هـ) " أن من أخلاق الصوفية تقديم إنفاق الدراهم والدنانير في طعام الجائع وكسوة العريان وقضاء الديون التي لا يقدر أصحابها على الوفاء بها على بناء الزوايا والمساجد"([24])، وفي ذلك نُقل عن عبد الله بن المبارك (118-181هـ) قوله "لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد"([25]). ما يعني أن الرجل الصوفي يعمّ بخدمته الجميع بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم ويشمل بمعروفه من يستحقه ومن لا يستحقه.

كما أن النشاط التضامني والعمل الإجتماعي لدى المتصوفة لم يتوقف على جمع و توزيع ما تجود به أيادي المتصدقين والمحبين من صدقات وهدايا ونذور بل انتقلت الى إستثمار ممتلكاتها من أراضي الوقف والحبوس في الأعمال الزراعية وتدبير مداخيل ذاتية تستغل في مختلف الخدمات الإجتماعية ومساعدة المحتاجين إذ "ومن صور التضامن داخل الزاوية أنها كانت لها في الريف أرض موقوفة يحرثها المسلمون ويعتنون بها ويستعمل إنتاج هذه الأرض في صيانة وتغطية أجور المدرسين ومعيشة التلاميذ او الطلبة ، كما يقدموا عادة إليها مسلموا الناحية جزءا معينا من إنتاجاهم الفلاحي سنويا "([26])، وهي كلها قيم أخلاقية وسمات سلوكية تدلل على أن السعي في مساعدة الناس والتضامن معهم و إبتكار خدمات تخفف عنهم أولى من العبادات الميكانيكية التي تقام بشكل آلي "و أن الإشتغال في صلاح القوت من الدين كالرأس من الجسد" كما يقول ابن القنفد"([27]).

كما أن الدارس لكتب التراجم والسيّر وتاريخ المتصوفة يتضح له الدور الكبير الذي لعبه المتصوفة في الحياة العامة للمجتمع فنجدهم قد إهتموا بكل ميادين وتفاصيل الحياة الإجتماعية ، فكان همهم وشغلهم الشاغل هو مساعدة الغير والتفكير في شؤونهم، ومن ذلك تدلنا كتب التاريخ "على أن المتصوف بن قسي أبو القاسم أحمد بن الحسين المتصوف الأندلسي قائد ثورة المريدين (توفي546هـ) باع كل ما يملك وتصدق به على المعوزين وذوي الحاجات"([28]). كما روى التاريخ عديد الأمثلة والقصص عن رجال متصوفة آثروا بيع ما يمتلكون لخدمة العامة من الناس تحقيق حاجاتهم والتخفيف من الضرائب الملقاة على عاتقهم بل وصل الأمر بالبعض منهم الى درجة التسول لتحقيق مآرب القوم" فنجد ابي عمران موسى ابن اسحق الوريكي(توفي592) ما جاءه مسكين الا أعطاه، فإن لم يجد شيئا يعطيه قام معه الى السوق يمشي على الناس ويسألهم له"([29]). وهذا كله كون الصوفي يرى انه لا يتحقق الكمال الأخلاقي لدى المتصوفة الا بنزع الشح من قلبه وإمتلاءه بمحبة الأخرين و لأن " مقام التصوف لا يكتمل حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساتر لعيوبهم ، و الى إقامة مجتمع أخلاقي تسوده المحبة والسعادة والخير "([30]). كلها دلائل ومؤشرات تؤكد على أن المتصوفة كانوا ملجأ كل محتاج الى مساعدة أو خدمة ، وكون العمل التضامني الإجتماعي لدى المتصوفة يُعد شعبة من شعب صدق الإيمان وصحته " إذ ومن معينات الصحة الإيمانية عند الصوفية محبّة الناس والقيام على خدمتهم وصرف الجهد في تحقيق

مصالحهم ونصرتهم كما أشار الامام الترميذي (824-892) "([31]) ، ما يجعل من الخدمة الإجتماعية والسعي إليها لدى الصوفي وتسخير جهده ووقته لخدمة الآخرين صورة لصدق وصحة إيمانه .

كما أن سعي المتصوفة لتدبير الأعمال الإجتماعية والمبادرات التعاونية تُعد مؤشر على تواصل و إنفتاح المؤسسة الصوفية على المجتمع و إهتمامها بالشأن العام ومعيشة الأفراد "وأن العمل الإجتماعي بالنسبة للصوفي هو وسيلة للرقي في مدارج المقامات، وسبب لتصفية الباطن من قيود المادة، ، و تربية السالكين على النفع والعطاء إتجاه المسلمين"([32]).

إن الدور التضامني الإجتماعي للمتصوفة يمكن إستخلاصة عند دراسة تاريخ الزوايا في الجزائر والمغرب العربي عامة والذي يكتشف عن الدور النهضوي والتنموي الذي سعت الى تحقيقه الزوايا خاصة في ظل تدهور الظروف المعيشية لأفراد المجتمع الجزائري وحالة الفراغ المؤسساتي الذي كان يعيش فيه الفرد و حالة الفقر وغياب الخدمات الصحية والتعليمية وإرتفاع نسبة الأمراض والجوع والجهل ،وفي وسط هذه الحالة المتأزمة يبرز أفراد ومؤسسات كالزوايا وشيوخها ذوو كاريزما قوية وأصحاب تصور تنظيم ريادي وفكر إبداعي خلاق يفكرون في معالجة الوضع بطرق وآليات مبتكرة يهدف المساهمة في التقليل من حجم المعاناة بهدف تحقيق تغيّر إجتماعي إيجابي جعل منها قبلة كل محتاج وعليل ومهموم. ما جعل الزوايا تمثل حلقة محورية في تاريخ المجتمع وفي تفاصيل الحياة اليومية للمواطن وعنصر أساسي من عناصر ومكونات البنية الثقافية والرمزية والفكرية والعقائدية للأفراد ، و جعل منها مكونا في تشكيل معالم شخصية المواطن ساهمت في صقل معارفه وتوجيه قيمه وسلوكه ، وأصبحت بذلك الزوايا مؤسسات موازية للدولة بالنظر لحجم الخدمات التي كانت تلتزم بتقديمها لأفراد المجتمع ،هذه الوظائف وغيرها التي سعت من خلالها المؤسسات الدينية عامة والزويا خاصة منذ نشأتها الى تقديم خدمات ذات طابع تضامني إنساني غير هادف لتحقيق منافع جسدت مقومات وأهداف المقاولة الإجتماعية في أبسط تجلياتها كونها نشاطات ومبادرات إجتماعية تحقق منفعة عامة سعيا لرفع الغبن كما تكرس قيم التضامن والتعاون والتآزر ، و جعل من الطرق الصوفية "تعرض نفسها كبديل تشكل طليعة الحداثة و رائدة المبادرات الإجتماعية والروحية تمثل الجزء المركزي للثقافة الإسلامية" ([33]) .

5.خاتمة

إن ما يمكن إستخلاصه إنطلاقا مما تقدم هو تعدد مجالات إهتمام وتدخل المتصوفة في مختلف مجالات الحياة ودورهم في التاريخ الإجتماعي والتضامني الجزائري و المغاربي عامة من خلال سعيهم الدائم على تحقيق التوازن والتكافل الإجتماعي وتوثيق العلاقات الإنسانية وغرس المودة والرحمة وإشاعة الخير والإيثار بين أفراد المجتمع بل أنهم وهبوا حياتهم في خدمة الناس و أساس وجودهم ، وهو ما يفسر عمق التشابك بين المتصوفة و أفراد المجتمع وقضاياه، وجعل من المؤسسات الصوفية المؤسسة الفاعلة الأولى في مجال الريادة الإجتماعية و من التصوف مذهب أخلاقي إجتماعي نفسي وتربوي .

اذ وعلى الرغم من حجم الخدمات المتعددة التي ساهم بها هؤلاء المتصوفة في المجتمع وفي كل مجالات الحياة، الا أن مفهوم المقاولة الإجتماعية لا تجد له تداولا مباشرا او غير مباشر في الأدبيات الصوفية، كون الخطاب الصوفي يرتكز في التعبير على تجربته في الكثير من المواقف على إعتماد الإشارات والتعبير الرمزي انطلاقا من رؤية فلسفية مفادها أن اللغة حسب المتصوفة " تبقى عاجزة عن إحتواء كل ما يقذفه الذوق في قلبه من معان و أسرار و دلالات لإن العبارة لا تفي ببيان المضنون من كلام العارفين ، إنما هي أنوار و إشارات تذوق النفس منها على قدر ما وهبها الله"([34]). لكنها تمظهرت كممارسة سلوكية تدخل ضمن السياق الأخلاقي في علاقة تداخل و إرتباط مع قيّم المحبة الإلهية والتي لا تتحقق للصوفي الا عن طريق إظهار محبته للأفراد ضمن إطار حديث رسول الله " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " و قوله كذلك "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا " ، كما تتمظهر في إطار جملة النشاطات والمبادرات الإبداعية التي سعى هؤلاء لتحقيقها من منطلق أخلاقي وإنساني و قيمي لخدمة المجتمع والإهتمام بالشأن العام في إطار مفاهيم السعي الى المعروف والنهي عن المنكر. حيث ربط المتصوفة بين السعي نحو العمل الخيري والتضامني ضمن السلوك المميز للإنسان المسلم في مجاهدته لنفسه لتحقيق الكمال المرغوب وكطريق سالك الى الله حيث لا يتحقق السمو الا بمحبة الآخرين .كل ذلك جعل من مبادئ المقاولات الإجتماعية تنبثق من قيم التربية الروحية والتجربة الصوفية القائمة على خصائل العطاء والكرم والجود وحسن الخلق ومحبة الناس والسعي في مصالحهم والتفكير في شؤونهم و الإهتمام بأحوالهم وتدبير حوائجهم وتفريج الكرب عليهم والتخفيف من آلامهم وتفضيل الغير على النفس والعناية بالعمل والإتقان وتجنب الكسل و لتعد جزءا من ثقافة الصوفي الخلقية وعقيدته الثابتة.

الهوامش:

[1]– منال عبد المنعم جاد الله ،التصوف في مصر و المغرب ، منشأة الاسكندرية،مصر ،1997، ص57

[2]Daniel W. Brown, A New Introduction to Islam wiley Black well new jersey,usa, Third Edition, 2017,p 221-

[3] – ابن خلدون، المقدمة،دار يعرب،الطبعة1 ،دمشق، 2004 ،ص 517

[4]–سبنسر ترمنجهام ،ترجمة عبد القادر البحراوي،الفرق الصوفية في الإسلام ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان، 1973،ص11

[5]عبد الرزاق سعيد بلعباس ،مفهوم القطاع الثالث والاشكالات المعرفية،اقتصاديات العمل الخيري ،معهد الاقتصاد الاسلامي ،جدة ،السعودية،2017،ص8

[6] محمد قوجيل،محاضرات في المقاولاتية ،كلية العلوم الاقتصادية والتجارية ،جامعة قاصدي مرباح أورقلة،2016-2017،ص4

[7] ايثان ميلر ،اقتصاديات اخرى ،محور ادارة واقتصاد ،مجلة الحوار المتمدن،العدد 1752،المغرب،12-12-2006

[8]نوزاد عبد الرحمن الهيتي،الدور التنموي للمنظمات غير الحكومية،مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية،ط1،ابوظبي،الامارات

العربية،2011،ص15

مدحت ابو النصر ،ممارسة تنظيم المجتمع في احدى الجمعيات الأهلية،المؤتمر العلمي الثالث،كلية الخدمة الاجتماعية،جامعة [9]حلوان،مصر،

2000،ص98

جبريل جحشان،حسين يحي،العمل التطوعي الفلسطيني،هيئة العمل التطوعي الفلسطيني ،رام الله،تقرير حالة التطوع في [10]العالم،الأمم المتحدة،

2011،ص15

[11] حسن محمود،مقدمة الخدمة الاجتماعية،دار النهضة العربية ،بيروت ،لبنان،1989،ص125

[12] وجيه كوثراني،المجتمع المدني والدولة في التاريخ العربي،بحوث ومناقشات الندوة الفكرية حول المجتمع المدني ودوره في تحقيق الديمقراطية،مركز دراسات الوحدة العربية،ط2،بيروت،لبنان،2001،ص127

[13] وجيه كوثراني، المجتمع المدني والدولة في التاريخ العربي،نفس المرجع ،ص121

محمد الطاف،دور التصوف في الأمن والسلام الاجتماعي ،مجلة القسم العربي،جامعة لاهور ،باكستان،العدد 24،سن [14]2017،ص263

[15]ايرك يونس جوفروا،المستقبل للاسلام الروحاني،ترجمة هاشم صالح،شركة نبض للنشر والتوزيع،مصر،ط2016،1،ص17

[16]هادي العلوي،مدارات صوفية،دار المدى،دمشق ،سوريا،ط186،1997،1

[17]ليلى قراوازان، محمد رمزي،التصوف في مرآة معاصرة ،مجلة جامعة النجاح للأبحاث ،فلسطين، مجلد 27،السنة2013

انا ماري شيمل ،الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف ،ترجمة محمد اسماعيل السيد ،رضا حمد قطب،منشورات الجمل [18]،العراق،ط2006،1،ص260

[19] انا ماري شيمل ،الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف،نفس المرجع،ص260

[20]عبد الحمن الجامي ،نفحات الأنس من حضرات القدس ،مكتبة لأزهر الشريف،مصر ،1989،ص43

محمد ابن الطيب،مسؤولية النخب الدينية والثقافية في الحفاظ على سلم المجتمعات وتضامنها ،مجلة التفاهم [21]،العدد42،عام103،2013

[22] ابو العباس بن العريف،مفتاح السعادة،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،لبنان، ط1993،1،ص29

[23] عبد العزيز بن عبد الله ،معلمة التصوف الاسلامي،دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع،الرباط ،المغرب، ط2001،1،ص85

[24]هادي العلوي،مدارا صوفية،مرجع سابق،ص185

[25]محمد الطاف،دور التصوف في الأمن والسلام الاجتماعي،مرجع سابق، ص266

[26] ابو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،الجزء الأول،منشورات دار الغرب الاسلامي،بيروت،لبنان،1985،ص266

[27]الطاهر بونابي،التصوفي في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين،شركة دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع،الجزائر،2004،ص17

[28]هشام البقالي،جوانب من الحياة الاجتماعية لمتصوفة العصر المرابطي،مجلة روافد ،المجلد 03،العدد1،جوان 2019،ص198

ابو يعقوب يوسف بن يحي التادلي،تحقيق احمد التوفيق، التشوف الى رجال التصوف ،منشورات كلية الآداب والعلوم [29]الانسانية،الرباط

سلسلة بحوث ودراسات،رقم22،ط1997،2،ص218

[30] عبد الحفيظ فرغلي،علي القرني،التصوف والحياة العصرية،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،1984،ص19

[31] معتوق جمال،اوسرير محمد،الصحة الايمانية والوقاية من السلوك الانحرافي،التربية الصوفية انموذجا،دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة ،جامعة خيضر محمد ،بسكرة،2012،ص151

[32] طارق العلمي،الدور الاجتماعي لرجال التصوف،مركز الامام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة،المغرب،2016

[33] ايريك جوفروا، المستقبل للاسلام الروحاني،مرجع سابق،ص225

[34] مصطفى محمود ،السر الأعظم،دار المعارف ،مصر،الطبعة10،2002 ،ص12